الأربعاء: 2023/11/29
التّوقيت: 13:10 – 14:20
عن بعد

الدرس رقم 07: النظم وعلاقته بعلم البيان

علم البيان هو وسائل ضروب المجاز وهي من مقتضيات النظم.

ويعرضها الجرجاني ضمن التشبيه والتمثيل والكتابة والاستعارة والمجاز مقررا أن المزية فيها ليست في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخير ولكنها في طريق إثباته لها، وتقريره إياها، وإذا عرض للاستعارة في بيت ابن المعتز المشهور:

سالت عليه شعاب العي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

أكد أن الاستعارة هنا على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد صلحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وكذلك يفضل الكلام على مدخل النظم في بلاغة الاستعارة.

لقد ربط الجرجاني الاستعارة بعلم البيان ربطا بديعا، وأوضح أن من أنواع الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا بعد العلم بالنظم، ومن دقيق ذلك أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى «واشتعل الرأس شيبا» لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، وليس الأمر ذلك، إنما الجمال أن تعلم أن «اشتعل» للشيب في المعنى، وإن كان للرأس في اللفظ، فهل إذا أخذت اللفظ وسندته إلى الشيب صريحا فتقول: «اشتعل شيب الرأس» هل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فما السبب في أن «اشتعل» إذا استعير «للشيب» كان له الفضل؟

السبب أنه يفيد لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل الشمول، وأنه قد شاع فيه، وعمّ جملته حتى لم يبق من السواد إلا ما لا يعتد به.

ونظير ذلك في التنزيل قول الله عز وجل: «وفجرنا الأرض عيونا»، فإن التفجير للعيون في المعنى لكنه أوقع على الأرض في اللفظ، وذلك أفاد أن الأرض قد صارت عيونا كلها، وأن الماء كان يفور من كل مكان، ولو قيل «فجرنا عيون الأرض» لم يفد ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض.

ويتحدث عن التشبيه في مثل: زيد كالأسد. وكان زيدا الأسد، وأن في المثال الثاني زيادة في معنى التشبيه ليست في الأول، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع «أن»..

كما يتحدث عن ضروب من المجاز العقلي أو المجاز في الإسناد، وعن ضروب الكنايــة في التشبيــه، ومدخل النظم في بلاغتها.

بل أنه ليقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم، وعنها يتحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد، فإذا قلنا في لفظ «اشتعل» من قوله تعالى: «واشتعل الرأس شيبا»، أنها في أعلى المرتبة من الفصاحة لم نوجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس، معرفا بالإلف واللام ومقرونا اليهما الشيب منكرا منصوبا، فليست الفصاحة صفة للفظ «اشتعل» وحده.

ويقرر عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» أن المزية للكلام إنما هي في نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها، وليس الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها، وزيادات تحدث في أصول المعاني، كالذي أريتك فيما بين «زيد كالأسد» و«كان زيدا الأسد»، ولا نصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ فيها بوجه من الوجوه، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية، فليس للحفظ من حديث هو لفظ حسن «مزية»، إذ المزية ليست بمجرد اللفظ، وإنما تقع في اللفظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة، وهي الإعجاز القرآني، في النظم وحده، لا في شيء آخر.